مراحل تطور مفهوم الشعر في الشعر المغربي الحديث

تدرج مفهوم الشعر لدى شعراء المغرب عبر مستويات عديدة ومختلفة ، تبتعد أو تقترب من أسس وعناصر العملية الشعرية الإبداعية، وذلك بحسب مستجدات الأحوال الاجتماعية والثقافية والأدبية في المغرب.

وهكذا عرف مفهوم الشعر عدة صور وأشكال في تاريخ حركة الشعر المغربي الحديث وهي :

مرحلة أواخر القرن التاسع عشر.

مرحلة أوائل القرن العشرين.

مرحلة الثلاثينيات وبداية النهضة الأدبية.

مرحلة الأربعينيات التي امتد إشعاعها إلى بداية الستينيات.

مرحلة القصيدة المعاصرة من الستينيات إلى اليوم.

إن كل مرحلة من هاته المراحل، كان الشعر يكتسب فيها مفهوما خاصا،أخذ يتطور بحسب وعي الإنسان المغربي واندماجه في حركة التقدم الفكري والثقافي والأدبي. فالمغرب منذ أوائل القرن العشرين عرف عدة هزات، جعلته يغير من أسلوب حياته ونمط تفكيره، ونظرته إلى الحياة. وكان فرض نظام الحماية من أعنف تلك الهزات، الشيء الذي دفع المغاربة إلى الأخذ بأسباب التقدم، وسلكوا عدة طرق من أهمها التفتح على الثقافات المختلفة والاطلاع على أحدث ما أنتجته الحضارة الحديثة في المجالات العلمية والفكرية والأدبية وغيرها. **فكيف كان مفهوم الشعر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ؟**

إن مفهوم الشعر في هذه المرحلة لم يكن يرتبط بأي عنصر من عناصر العملية الشعرية الإبداعية، فالشعر في نظر شعراء هذه الفترة، لم يكن له موضوعه المستقل، بل كان موضوعه مرتبطا بموضوعات العلوم والمعارف الأخرى، فهو جزء لا يتجزأ من موضوعات هذه العلوم والمعارف؛ إنه مجرد أداة للعلوم الفقهية واللغوية

ووسيلة لحفظ الشواهد في معرض علم النحو والبلاغة،ورواية المثل السائر.ثم إنه مجرد مطية يركبها الناس للوصول إلى تولية بعض المناصب القضائية والإدارية ؟؟

يقول عبدالله كنون واصفا حالة المغرب في ذلك الوقت : (إن حالة المغرب العامة، أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين، لم تكن لتخلق جوا أدبيا يختلف عما عهده الناس، ولا لتحدث تحولا فكريا في غير الجري المألوف..ومن ثم فإن الحياة الفكرية والأدبية بقيت على حالها، من تمثل الماضي في المادة والقالب وفي المعنى والأسلوب .) _أحاديث عن الأدب المغربي الحديث_

ويقول محمد عابد الجابري وهو يصف حالة المعاهد والمدارس التعليمية في نفس الفترة :(إن جامعة القرويين والمدارس التابعة لها خلال القرن 19 وبداية القرن 20، والتي كانت مثالا لأقصى ما يمكن أن تصل إليه مؤسسة علمية من الانحطاط والتخلف؛ إذ لم يكن عدد المنتسبين إليها في عهد الحسن الأول يتجاوز ألف طالب، وهو عدد سينخفض إلى النصف خلال العقد الأول من القرن 20,) _ أضواء على مشكل التعليم بالمغرب_

مرحلة أوائل القرن العشرين

من السهولة بمكان القول ،أن مفهوم الشعر في هذه المرحلة لم يطرأ عليها أي تغيير لكونه لم يمس عناصر العملية الشعرية، ولكنه مس فقط مجال موضوعه. فقد تخلص من الخلط بينه وبين علوم الفقه واللغة والبلاغة، وكذلك من اعتباره مجرد آلة لفهم هذه العلوم، ومن اعتباره ثقافة مكملة لثقافة الفقيه أو الكاتب أو القاضي. فقد استطاعت الحركة السلفية أن تحدث هزة وخلخلة في مفهوم الشعر، والتي كانت لصالحها وليس للعملية الإبداعية الشعرية. فقد احتوت الحركة الشعر ليكون لصالحها في الدعوة إلى نشر أفكارها، وخاصة بعد فرض نظام الحماية سنة 1912.

يقول عبدالله القباج في بعض أبيات من قصيدة له:

ليس التمدن ما يلهيك عن عمـل يرقي البلاد ويعلي الفكر والنظرا

ليس التمدن بالتزويق مسخـــرة إن التمدن ما أولاك مفتخـــرا

ليس التمدن في عيب الذين مضوا بل التمدن في إجلال من غبـــرا

مرحلة الثلاثينيات وبداية النهضة الأدبية

نستطيع أن نجزم بالقول ، أنه مع بداية سنوات الثلاثين من القرن العشرين، عرف الشعر المغربي قفزة نوعية نتيجة الاتصال بالمدارس الشعرية المشرقية، وخاصة المدرسة الإحيائية.ذلك أن نهضة الأدب في المغرب،وبإجماع العديد من مؤرخي الأدب والثقافة المغربيين بدأت متأخرة نتيجة أسباب أبرزها عزلة المغرب عن المشرق والغرب بسبب الحماية؛ وهذا لم يكن مانعا من بروز حركتين أثرتا في الأدب والسياسة :السلفية والوطنية؛ وكلاهما ظل في مختلف كتابات المرحلة متصلا بالإصلاح والهوية. ولدينا في كتابات علال الفاسي والمختار السوسي وغيرهما نصوص ومواقف معلومة.

و في علاقة بما سلف، يمكن القول أن القصيدة في المغرب لم تنفلت عن الإطار النهضوي الذي وجه الثقافة عموما.فلم تكن القصيدة المغربية كما يقول بعض الباحثين ،مجرد أداة للعلوم الفقهيةواللغوية،ووسيلة لحفظ الشاهد في معرض علم النحو وعلم البلاغة..؛ وإنما نهضت بعبء التوجيه والإصلاح وبث بذور الوعي الوطني ،لاسيما وأن معظم كتابها كانوا يزاوجون بين الصناعتين،وليس معنى هذا أنها خطب،أو وثائق،أو بيانات؛بل إننا نستطيع أن نذهب إلى أن كثيرا من شعرائنا المحدثين استطاعوا أن يحملونا معهم على الإيمان بجملة من الحقائق والقضايا،على اختلاف أشكالها وتوجهاتها؛وذلك بتمثلهم لها تمثلا تتحول في ذاتهم إلى رؤى وصور ممتزجة بماء العاطفة ومغموسة بدماء القلب،ومستمدة من مواقف الحياة الذاتية ومعاناتها.فالفترة عرفت أسماء شعرية كان الشعر بالنسبة إليها هما وأرقا دائمين،يستشف من ثنايا سطور بعض القصائد التي لا تخلو من إبداع في حدود عصرها.

إن الشاعر المغربي في الفترة الممتدة من 1912و– 1956أي فترة الحماية–،كان محكوما في عمليته **الشعرية بخاصيتين أو هاجسين** متكاملين :

-/1هاجس الخلق الفني الصرف

-/2 والهاجس الفكري الذي يسلك فيه طريقة صياغة الأفكار والمضامين والموضوعات والقضايا:وهما معا – أي الحالتين- تخضعان لطبيعة اللحظات الشعرية والظروف المستجدة .

ففي الحالة الأولى يكون الشاعر هادئا من أية فورة غضب يمليها حادث ما،أو نكسة ما فينصهر الشاعر في ذاتيته الحالمة؛فتنبثق القصيدة التي نبحث عنها بكل ما تملك من مقومات فنية قد تتباين نسبتها بين قصيدة وأخرى.وفي الحالة الثانية يستسلم الشاعر لعاطفته الجياشة الوطنية والقومية والدينية؛فيكون الارتجال سيد اللحظة الشعرية ممتلكا ناصيتها، فتأتي الأفكار واضحة ملبية لرغبة المنصت والقارئ معا .

هذه اعتبارات،من بين أخرى،كانت تحكم تصور الشعر وتحدد أيضا بعض أنماط بنائه الفني وموضوعاته؛ وهي تقود إلى استخلاص قيم أدبية "تبرر الانتماء الوطني والقومي للشاعر والتزامه به . ومن هنا أيضا،قيمة هذه العلاقة الجدلية بين تصور مفهوم الشعر وصلته بالحاجة الاجتماعية والسياسية المبررة لكتابته وتداوله,

يقول الناصري:

شعر الحقيقة مطمح الزعماء المالكين أزمة الأهـــــواء

المالئي الدنيا بوقع دويهـــم الممتطين مناكب الخضـراء

الخالعين على المعاني حلـــة فياضة بالعزة القعســـــــــاء

...

والشعر تيارالشعور يثيرمـــن كل المشاعر كامن الإغـــــراء

والشعر تاج المستقل بنفسـه في روعة الإنشاد والإنشـــــاء

والشعر عرش لايليق به سوى من جاوز الشعرى من الشعراء

من هذا المنظور،يعتبر **محمد بن اليمني الناصري**1971-1891)م (من الشعراء المغاربة القلائل الذين مارسوا العمل الإبداعي بوعي تام،فهو لم يكتب الشعر بقصد إظهار القدرة التعبيرية أو التفوق في العملية الشعرية؛وإنما كتبه استجابة لمعاناة الذات. فشعره يطرح عدة قضايا إن على مستوى المفاهيم والتصورات،وإن

على مستوى العناصر المكونة له؛فهو ذو شاعرية رقيقة حالمة تدثرها لغة مضمخة بعبير ديني. ولعل أبرز خصيصة تتجلى واضحة في شعره هي الصدق في التعبير،خاصة في أشعاره الوطنية والقومية؛وأيضا في بعض أشعاره الدينية،ولا سيما منها قصيدته الهمزية التي بث فيها همومه الوطنية والقومية والإسلامية في تعبير صادق خال من التكلف،بعيد عن التشابيه المصطنعة والاستعارات المفتعلة.ومن ثم جاء مفهوم الشعر عنده مختلفا عن المفهوم الذي كان سائدا في وقته فهو يتفاعل مع الأحداث لينفعل بها شعريا في ضوء رؤية شعرية واضحة.

هكذا، لاتصاغ أسئلة الشعر من مقولات فلسفية أو تعميمات تجريدية،بل إنها عند الشاعر المغربي كانت تستمد من نسغ تجربته في الحياة والمجتمع ،منتقدة مدارات الواقع ورغباته؛إلى درجة يمكن معها إيجاد تماثل بين البنيات المجتمعية والثقافية، وخاصة منها المغامرة الشعرية التي تظهر بجلاءغنى النصوص برؤية فكرية متفاعلة مع قضايا الوطن ومحددة لمعالمها الإبداعية .وهكذا، لم يكن الشعر -مثلا -عند **علال الفاسي** حلية أو زينة أو تزجية فراغ،على الرغم من أن الرجل متعدد المواهب متباين الشجون؛وإنما كان الشعر عنده من الأسلحة التي يخوض بها غمرات الجهاد.ولكن شرف الهدف عنده، لم يكن ليحول الشعر نظما يتخلى عن القيم الجمالية التي يتطلبها الشعرالرفيع.والشعر لشرفه، ليس مركبا ذلولا، ولا مطلبا هينا، ولا هو يسلم قياده في يسر لمن ملك ناصية البلاغة :

لعمرك ما قول القريض بهيـن عليك،ولو كنت الأديب الموحدا
ولو كنت سحبانا وقسا خطابة فما كل من نال الخطابة أنشـدا

الشعر إنشاد إذن،والإنشاد إيقاع،فلذلك أولى الشاعر الإيقاع ما يستحق من العناية،وبسبب ذلك وجدناه يسعى إلى استثمار أكبر قدر ممكن من الأشكال الشعرية،في مراحل عمره المبكرة،أعني وهو دون الثلاثين.فهو قد كتب القصيد والنشيد والشعر التفعيلي، كما كتب الموشح والرباعيات ومارس التشطير والتخميس والتذييل،وتعاطى القصة الشعرية،مع ما تتطلبه من تنويع في القوافي.كما اهتم بالشعر التعليمي،ونهج نهج شوقي؛وكان به معجبا،فوضع شعرا للأطفال وأبدع فيه.

وضمن نفس الاختيار،يأخذ القول الشعري عند **المختار السوسي** شكلا وظيفيا وإبداعيا،منفذه إلى ذات الشاعر في علاقتها التواصلية بالآخر،عازفا على إيقاع الغربة والنفي استعارات تضفي على بعض قصائده بعدا جماليا بعد أن تمثلته اللغة السردية **حدثا تاريخيا**.

يقول من قصيدة طويلة في كيفية تأثره بالغربة:

أرأيت الأيام كيف تـــــــدول والليالي بالسهد كيف تطول؟
ويد الدهر كيف تلعب بالحـــ ـر؛طلوع طورا؛وطورا نـــزول
بينما المرء في شروق صباحـــا إذ به في المساء عاد الأفـــول
...
ليت شعري وقد بدا الصبح للعيـ ـنين هل ذاك القرار يـــــزول؟
فأرى نضرة الحياة لدى)الحمـــ ـراء(أيضا حيث المنى والســول
فاشتياقي إلى مرابعها مثـــــــ ـل قصيدي هذا؛طويل طويـــل

مع المختار السوسي تجسد القصيدة علاقة فكرية بالوجدان،تسمح بإعادة تمثيل أعماق التاريخ والمتخيل واستثماره في تنويع لغة للشعر منبثقة من صلب الحياة.

إننا عندما نفكر في هذه المظاهر والتجارب مجتمعة،يتجلى لنا تصور للأدب والشعر يأخذ بالاعتبار صلته بقضايا المجتمع،وأيضا علاقته بأنماط من الوعي والرؤية للعالم.كما أنها مظاهر تستوعب بعض الجوانب المتصلة بتركيب وبناء النص الشعري.